توظيف الموروث الديني والأسطوري
في قصيدة رسالة الى سيف بن ذي يزن لعبد العزيز المقالح

م.د. غانم صالح سلطان
جامعة الموصل – كلية التربية للعلوم الإنسانية

تاريخ الاستلام تاريخ القبول
٢٠١١/١/٩ ٢٠١٢/٣/٧

الملخص

يهدف البحث الكشف عن اهمية توظيف الموروث في النص الشعري العربي المعاصر من خلال ربطه بمطيات عصرية ، فالمورث منبع ثر ينهل منه الشعراء لتطعيم نصوصهم عبر توظيف معطياته ،وقد وقع الاختيار على قصيدة (رسالة الى سيف بن ذي يزن) لما تزخر به هذه القصيدة معطيات الموروث الدينية والأسطورية التي حاول المقالح من خلال توظيفها التعبير عن رؤيته تجاه واقع بلاده المرير في محاولة منه لإستثارة الهمم لتغيير هذا الواقع عبر الإشارة الى شخصيات بطولية مثلت رمزا للإصرار والثبات وإن اختلفت مستويات هذا التوظيف من خلال التعامل مع الجوانب الايجابية والسلبية لهذه المعطيات.

اولا: الموروث الديني

تشكل العودة إلى التراث الديني وتمثله ثيمة أساس للكثير من النصوص الشعرية المعاصرة لما ينطوي عليه ذلك الموروث من دلالات جمالية ورهانات فنية تخترق بدلالاتها المعاصرة فضاءها القديم لتنخرط في صميم واقع تتحدى فيه ذات الشاعر غرابة الظروف المحيطة به وليس مواجهة الواقع واشكالياته[١] عبر استعانة الشاعر واستعارته لبعض القصص أو الاشارات التراثية الدينية وتوظيفها في سياقات القصيدة لتعميق رؤية معاصرة يراها في القصيدة الراهنة التي يعالجها شريطة انسجام تلك المرجعيات مع النص الجديد لإثرائه وتعميقه فنيا وفكريا، اذ يعد التناص والاقتباس والتضمين من التراث اساليب فنية توظف لبلورة الحاضر من خلال تجربة الماضي وتستحضر لتعزيز موقف الكاتب من الرؤى والمفاهيم التي يطرحها أو يثيرها في نصه"[٢] فضلا عما يضفيه الموروث الديني للنص الشعري من أصالة وعراقة فانه يكسب الرؤية الشعرية نوعا من الشمول إذ يجعلها تتعدى حدود الزمان والمكان ويتعانق في اطارها الماضي مع الحاضر[٣].

وبناء على ما تقدم فالموروث الديني يعد منبعا مهما للابداع ومصدرا سنحا من مصادر الالهام الشعري يستمد منه الشعراء نماذج وموضوعات وصور أدبية[٤]، وتعد الكتب السماوية من اهم اسس واركان الثقافة الدينية ولعل اهمها القران الكريم، والمقالح اعتمد في تسخير النصوص الدينية على مستويين فهو لم يقتصر على مستوى الاقتباس المحض لكلمة أو اية أو استثمار الابعاد الدلالية للآيات القرآنية مدا للمعنى واستكمالا لابعاد الصورة حسب بل تجاوزه إلى عملية التناص مع المعطيات المختلفة وتوظيفها فنيا اما ايجابا واما سلبا مما يمنح مجالا اوسع للاستفادة من هذا المصدر القرآني الخصب والرقي بتجربة الشاعر وتطوير ادواته الفنية.

---

(١) ينظر: اشتغال التراث في الشعر العربي المعاصر تجربة محمود درويش نموذجا، عبد الرمن التمارة، البحرين الثقافية، ع٤٢، س٢٠٠٥: ٦١.

(٢) دلالات التناص في قصيدة راية القلب لابراهيم نصر الله، احمد الزغبي، دراسات العلوم الانسانية، مج٢٢، العدد ٥، س ١٩٩٥: ٢١١٦.

(٣) توظيف الموروث الديني في شعر حيدر محمود، ابراهيم المكوفي، دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية، مج٢٨، ع١، س ٢٠٠١: ٢٠٧.

(٤) ينظر: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد: ٩٥.

ولعل أو ما يطالعنا في هذه القصيدة تسخير دلالة (العجاف) التي تحيلنا على سورة يوسف (عليه السلام) ، اذ يقوم المقالح في (الديباجة)[١]:

سفحنا عند ظل الدهر

تحت قيودنا الفا

ونصف الألف

من أعوامنا العجفا

اذ وردت لفظة العجاف في السورة الكريمة مرتين: الأولى في قص الملك لرؤيته العجيبة على الملأ، والثانية في قص الساقي برؤية الملك على يوسف (عليه السلام) لتفسيرها لقوله تعالى: **﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾**[٢] ولقوله أيضا **﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**[٣].

فلفظة (العجف) هنا لم تأت خارج إطار دلالتها القرآنية إذ يستحضر المتلقي لهذا المصطلح صورة العجف والجفاف والقحط في سياقها القرآني لرؤيا ملك مصر للبقرات العجاف السبع اللواتي يأكلن البقرات السمان السبع اذ اقترنت لفظة العجف بالبقرات حصرا فان المقالح تعامل مع تأويل النبي يوسف (عليه السلام) لهذه الرؤيا فقرن العجف بالأعوام الشديدة، فالبقرات إشارة "لسنين الزراعة لان البقرة تتخذ للاثمار والسمن مز الخصب، والعجف رمز للقحط.. وتأويل ذلك ان سني الجدب أتت على ما اثمرته سنو الخصب[٤]، فالشاعر يصف واقع الامة العربية والاسلامية المأساوي عبر حقب تاريخية طويلة امدها الفا ونصف الالف في اشارة إلى المسافة الزمنية بين ماضي الامة المشرف متمثلا (في انتحار سيف بن ذي يزن، وتوحد ملوك اليمن وما احرزه العرب من الانتصارات)* والحاضر المزري متمثلا في الرضوخ

---

(١) ديوان عبد العزيز المقالح: ٢٨٢.

(٢) سورة يوسف، الآية ٤٣.

(٣) سورة يوسف، الآية ٤٦.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: ٧٣/١٢.

* هو سيف بن ذي يزن إصبع بن مالك بن زيد بن سهيل بن عمرو الحميري من ملوك العرب اليمانيين ودهاتهم، وقيل اسمه معد يكرب ،ولد ونشأ بصنعاء ، ثار على الاحباش (بعد أن قتلوا اكثر ملوك اليمن من حمير) بثورة جبارة بمساعدة الفرس، وقتل ملك الاحباش واصبح ملكا على اليمن واتخذ من غمدان قصرا له، مكث في اليمن نحو خمس

تحت وطأة الاحتلال وما تعانيه الشعوب العربية من التمزق والسيطرة والاستلاب والتخلف وعدم القدرة على الانجاز وعبر عنها بـ(سفحنا تحت ظل الدهر) دلالة على ضياع الجهد والانجازات فهو كالدم المراق والدمع المهدر[١]، فالشاعر في تسخيره للموروث الديني "يضفي على عمله عراقة واصالة لان الموروث الديني يمثل نوعا من امتداد الماضي في الحاضر وتغلغل الحاضر بجذوره في تربة الماضي الخصبة"[٢].

اما المستوى الثاني فهو مستوى التوظيف الفني اذ يغدو فيه النص القرآني من اهم الوسائل التي تعين الشاعر في التعبير عن موقفه الشعوري ورؤيته الفكرية عبر تفجير طاقات النص بما يخدم التجربة الراهنة عبر التفاعل العميق مع هذه النصوص بغية الافادة من امكاناتها المختلفة في مجالات القول الشعري[٣]، اذ تتخذ هذه العلاقة صورا عديدة قد تتميز بالوضوح حينا والخفاء حينا اخر من ذلك قول المقالح في (الحنين)[٤]:

وأنت هناك لم ترجع
ولا عادت من المنفى
كتائب (قيلنا تبع)

اذ يستلهم الشاعر ذكر قوم تبع الذين تكرر ذكرهم في القران الكريم مرتين لقوله تعالى ﴿**أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾[٥] وقوله أيضا ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ {١٢} وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ {١٣} وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**﴾[٦] فاذا كان النص القرآني هنا يبين حال الاقوام الغابرة وما حق عليهم من الوعيد والاهلاك لتكذيبهم الرسل وما جاءوا به من الحق

وعشرين سنة، قتل بصنعاء على يد الاحباش، وهو آخر ملوك اليمن من قحطان، فكان ظهوره بين (١١٠-٥٠ ق.م) اي نحو(٥١٦-٥٧٤ م) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام :٢٢/١. والاعلام قاموس تراجم ، خير الدين الزركلي:٢١٠/٣.

(١) ينظر: مختار الصحاح، محمد بن ابي بكر الرازي: ٣٠٠.

(٢) توظيف الموروث الديني في شعر حيدر محمود: ٢٠٧.

(٣) توظيف الموروث الديني في شعر حيدر محمود: ٢١٠.

(٤) ديوان عبد العزيز المقالح: ٢٨٥.

(٥) سورة الدخان، الآية ٣٧.

(٦) سورة ق، الآية ١٢-١٤.

– ومنهم قوم تبع، فان المقالح وظف ذكرهم بطريقة فنية فهم اقوام يمنية* والقصيدة يمنية الأصل والمنبع والمنتهى فهي تذكر اليمنيين بماضيهم على مختلفة المراحل التاريخية لينقد حال بلاده وما آل اليه عبر اسلوب ساخر، – كما حصل في الزمن الرفاء – في سياق اسلوب ساخر فلم تعد كتائب قوم تبع لدى المقالح لانها باقية في المنفى، فهم في النص المقالحي ما زالوا احياء ويعيشون في المنفى وهذا خلاف النص القراني ،اذ إنهم اهلكوا جميعا ولم تبق منهم باقية فهم معادل موضوعي لثوار اليمن المبعدين لما عرف عن قوم تبع من القوة والمنعة ونجاح غزواتهم يعضيد هذا قرنية (الكتائب، والمنفى) فلا وجود حقيقي لذلك المنفى، كما لم يبقى من هؤلاء الاقوام الا الاثار وحسب.

ومن التوظيف الفني ايضا استلهام اسماء بعض السور القرآنية واستغلال طاقاتها الدلالية والايجابية فوجد ذلك في قول الشاعر مخاطبا سيف بن ذي يزن في (الموضوع)[1]:

توقع أن تموت اليوم ،
أن تحيا غدا في شاطئ الأعراف
فما اشقى جبينا خاف !
تمرغ في الظلام .. بكى،
فلاحقا افاد الدمع
لا انصاف
لا نجما تململ ضوءه
بحثا عن (الاحقاف)

ففي الموضع الاول من النص وظف المقالح اسم سورة الاعراف وحال اصحابها، لقوله تعالى **﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ {٤٦} وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٤٧} وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا**

---

* هم من حمير من عرب اليمن وحضرموت وسبأ التحرير والتنوير: ٢٤٦/٢٦ اهلكوا سبي العرم واصل النبع لقب لمن يملك جميع بلاد اليمن، وقيل سموه تبعا باسم الظل لانه يتبع الشمس فيشير بغزواته كل مكان تطلع عليه الشمس، وقيل سمي بذلك لان ملوك مخاليف اليمن تتبعه وتخضع له جميع الاقيال والاذواء، وهو اسعد المكنى (ابا حرب) كانت دولته في سنة الف قبل البعثة المحمدية أو في حدود السبعمائة قبل البعثة عرف بغزواته لبلاد العرب حتى بلغ العراق، ينظر: التحرير والتنوير: ٣٣٤/٢٥.

(1) ديوان عبد العزيز المقالح: ٢٨٠.

أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[١] والاعراف اسم للموضع الواقع بين الجنة والناس الذي يحبس فيه ناس من اهل الذنوب الذين قصرت ذنوبهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار فهم لذلك حتى ينفذ الله فيهم امره[٢]، فقرن الشاعر حال سيف بن ذي يزن بحال اهل الاعراف تصويرا للحالة النفسية التي يمر بها البطل ومن بعده الشعوب العربية وموقفها منه المستفاد من خطاب الشاعر للبطل الذي يطالبه باحداث التغيير والقيام بالثورة فاما الموت واما الحياة ولكن في شاطئ الاعراف وهذه دلالة مخصوصة فجعل للاعراف شاطئ يرمز به إلى ان البطل سيف يقف حائرا بين امرين كلاهما صعب كاصحاب الاعراف تماما فاما الاقدام على الثورة واما التخاذل والتقهقر ما بين سيرته الماضية وانتصاره على الاحباش ودفاعه عن الكعبة المشرفة وبين رغبة الشاعر في ظهور سيف (المعاصر) وما يواجهه من تحديات عصرية فهو ليس بميت ولا حي لان موقف الشعوب فيه الان مختلف ما بين مشفق عليه لانه يريد التغيير ولا يمتلك الوسائل المعنية من جهة، وبين مفتخر به ومؤيد له على ما انجزه في الماضي حسب، وبين مستهزء به ومتنكر له لعدم قدرته على النهوض بواقع بلاده واعادته إلى الصف الوجودي من جديد، وعليه فذكر سيف لم يندثر بالكامل كما لم يعاد ذكره ايضا لانه قيد النسيان بشدة وطأة الحال الراهن، لذا فالمقالح وظف في الموضع الثاني من النص نفسه اسم سورة الاحقاف في اطار التعجب في المال الذي وصل اليه البطل سيف (المعاصر) ومن بعده الشعوب العربية ما بين الخوف والبكاء والتمرغ في الظلام فكيف للبطل ان يكتفي بالبكاء فذلك ليس من الانصاف له أو لشعبه لذا فالشاعر ينعي ظهور أي بصيص أمل بتغير الاموال ويضرب مثلا لذلك (البحث عن الاحقاف) وهي منازل عاد المشرقة على البحرين عمان وعدن[٣] اذا اهلكهم الله بريح صرصر عاتية ولم يبق منهم احد الا مساكنهم كذلك الحال مع تمكن الخوف والخضوع من الشعوب العربية وقادتها فيكون مردها إلى الاندثار وضياع ذكرهم اذا استلهم المتاع قوله تعالى **﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾**[٤] فحض المقالح ذكر الاحقاف لانها جزء من بلاد اليمن اذ ان منتهى الاحقاف ارض حضرموت[٥] ووظفتها فنيا في ان اثار الاحقاف ومساكنهم مازالت باقية ومعروفة وأهلها هم من اهلكوا في

---

(١) سورة الاعراف، الآيات ٤٦-٤٨.

(٢) ينظر: تفسير الطبري: ٣٢٣/٢

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٩/٢٦.

(٤) سورة الاحقاف، الآية ٢١.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٩/٢٦.

حين ان النص المقالحي جعل من الاحقاف مكانا مجهولا لم يعثر عليه بعد، فضلا عن عدم وجود بصيص أمل في ان ينهض احد للبحث عن تلك الاثار الغابرة ومنه ايضا قول الشاعر في (نداء)[١]:

وخلف الغيم امطار
وفي الاعماق تحتشد (الابابيل)
و(ابرهة) يناور
وهو مأكول

فقد وظف الشاعر قوله تعالى في قصة اصحاب الفيل **﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ {٣} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ {٤} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾**[٢] اذ ان هذا المقطع دال على التفاؤل في قيام الثورة ضد الظلم والاستعمار نظرا لامتلاك العدد والعدة والوسائل الدفاعية رامزا لها بالقيم، والثورة بـ (الامطار) والابابيل (بالثوار) فهم "رمز تاريخي إلى الجنود الخفية.. للقيام بالثورة"[٣] في حين ان الابابيل في السورة الكريمة جنود من طير سلطهم الله على حبشي ابرهة للقضاء عليهم بحجارة من سجيل منهم "جماعات جماعات بعضها في اثر بعض"[٤] في حين ان ابرهة رمز تاريخي بكل غاصب ومستعمر على مر الزمان وما يمتلكه من وسائل التفريق والمغادرة التي ستبؤ بالفشل لانه مأكول وفي ذلك اشارة إلى تناثر اجزائه في كل حدب وصوب اذ شبه الله تعالى اصحاب الفيل وما ترهم بالزرع الذي تأكله الدواب ثم تروثه فيتيبس وتتفرق اجزاؤه – كما تؤكد ذلك الحقائق التاريخية في اهلاك حبشي ابرهة والقضاء عليه.

ولم يقف المقالح في توظيفه للنصوص الدينية عند القران الكريم حسب بل نجده يوظف حادثة صلب السيد المسيح (عليه السلام) من العهد الجديد بقوله في (الحنين)[٥]:

حديث الحب
موالا من الأشواق
صنعنا منك يا إنساننا المصلوب في الآفاق

---

(١) ديوان عبد العزيز المقالح:٢٩٣.

(٢) سورة الفيل، الآيات ٣-٥.

(٣) هذا الرمز حدد بقيام ثورة سبتمبر في اليمن عام ١٩٦٢ في حين اننا نراه رمزا عاما لكل ثورة ظواهر اسلوبية في الشعر الحديث في اليمن دراسة وتحليل، احمد قاسم الزمر: ١٥٥.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: ٦٠٤/٣.

(٥) ديوان عبد العزيز المقالح: ٢٨٤.

وفي الاعماق
حفرنا رسمك المشنوق
في الاحداق
وفي افواهنا مازلت أسطورة
وفي تاريخنا
في جيلنا تتوهج الصورة
وننتظر

فالنص المقالحي يتوازى مع ما جاء في العهد الجديد من استلهام هذه الحادثة الا انه في ذكر عملية الصلب لم يوحد بين بطله (سيف بن ذي يزن) وبين السيد المسيح (عليه السلام) من حب الجماهير فمعلوم ان السيد المسيح هو الفادي والمخلص الذي خمى بنفسه مختارا ذلك الطريق من اجل اسعاد البشرية بعد ان خانه احد تلامذته (يهوذا) رمز الوضاعة عندما تنكر لمعلمه وارشد الجند عنه والسيد المسيح مستمر في تعليم تلامذته ولم يحاول الهرب[١] وما تمخض عنها صلب السيد المسيح (عليه السلام) اما بطل المقالح، فقد جاء التعبير عن حب الجماهير له بالسخرية بدلالة تحول ذلك الحب إلى موال واحد من الاشواق وهو البطل التاريخي والاسطوري والشعبي عند اليمنيين في زمانه، وبدلالة (صغنا منك) وهذا يعني ان البطل المنتظر لم يكن بهذا الحجم من القدرة على تحقيق الانتصارات والانجازات فهي مساقة للسخرية مما جرد عليه العادة في تعظيم ادوار القادة، فضلا عن ان معنى الجملة لم يتم بل بقي مجهولا (فماذا صغنا منك) وما يترك المجال مفتوحا اما المتلقي في تأويل موقفه من سيف بن ذي يزن فهي مقارنة ما بين سيف (الماضي) الذي كان بطلا واسطورة تتذكر سيرته الاجيال اللاحقة ومبين سيف (المنتظر) الذي لن يأتي بدلالة (الانتظار وغرق المواجع والحلم) بعودة الفارس الاسمر الذي سيخلص البلاد العربية من مشرقها إلى مغربها من عوامل انكساراتها لكن دون جدوى بدلالة قول الشاعر في المقطع نفسه (الحنين)[٢]:

وعبر شواطئ (العربي) والأحمر
تظل جموعنا تسهر
وترقب فوق موج الليل
تشهد عند خط الأفق
خيل العائد الأسمر

---

(١) ينظر: العهد الجديد:١٣/١٦٠٩.

(٢) ديوان عبد العزيز المقالح: ٢٨٥.

وبذا تتضح خصوصية العلاقة الدلالية وعمقها في الصياغة الشعرية عبر التفاعل مع النصوص الدينية وتوظيفها فنيا تفهما وتدبرا واصالة فهي قراءة جديدة تسجل النصوص الدينية من نابضة حاضرة في الشعر والضمائر على الدوام ليست مجرد اصوات وكلمات مقيدة الدلالة[١].

ثانيا: الأسطورة:

احتلت الأسطورة مكانة بارزة في الخطاب الشعري العربي المعاصر ،فما من شاعر عربي معروف إلا نجد للأسطورة صدى في شعره باستثناء حالات قليلة لا يقاس عليها ،فقد شكلت الأسطورة نظاما خاصا في بنية الخطاب الشعري العربي المعاصر ،ويبدو هذا "النظام عصيا على الضبط والتحديد وذلك لضبابية الرؤية المراد طرحها في النص الشعري ولكثافة الأسطورة نفسها وتداخلها مع حقول معرفية أخرى"[٢] ويلجا الشاعر إلى الأسطورة ليستقي منها معاني جديدة للتعبير عن رؤيته العصرية تجاه الواقع، فقد حظيت باهتمام كبير في الشعر لأنها تمثل طفولة العقل البشري، والمادة الاكثر بكرا وعفوية ،اذ إنها "موجودة في لا وعي الإنسانية كلها"[٣] لأنها مرتبطة أساسا بالفكر الميتافيزيقي ومدارها مغامرات الابطال وافعال الالهة معهم وزمانها خارج التاريخ فهي ليست من الواقع التجريبي لان عالمها فانتازيا خاصة بها"[٤].

وعليه فالأسطورة ما هي الا الوعاء الاشمل الذي فسر به البدائي وجوده وعلل فيه نظرته إلى الكون بأكمله امتزج فيها العلم بالخيال والحلم بالواقع[٥] والفكر واللاشعور واتحد فيها الزمان والمكان وانواع الموجودات[٦] لتعبر عن حقيقة الوجود باسره.

فالأسطورة بنية ثقافية بالغة التعقيد اكتسبت متعددة دينية وتاريخية او اجتماعية وهي من اوثق المصادر التراثية صلة بالتجربة الشعورية لأنها "ليست سوى افكار متنكرة في شكل شعري"[٧].

---

(١) ينظر: الشعر العربي المعاصر، عز الدين اسماعيل: ٣٢.

(٢) توظيف الاسطورة في النص الشعري العربي المعاصر، محمد عبد الرحمن يونس:١.

(٣) الرمز الاسطوري في شعر بدر شاكر السياب، علي البطل: ٢٥.

(٤) ينظر: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، عبد المنعم الحنفي: ٥٩.

(٥) ينظر: الاسطورة في شعر السياب، عبد الرضا علي: ١٩.

(٦) ينظر: الاسطورة في الشعر العربي الحديث، أنس داود: ١٢.

(٧) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر: ١٧٤.

اما من وجهة نظر التحليل النفسي، ولا سيما عند يؤرخ فانه ينظر للأسطورة "على أنها تعبير رمزي عن مشاعر مجتمع ما وعن رغباته المكبوتة في اللاوعي الجمعي مثلها في ذلك مثل الحلم بالنسبة للفرد[١] وانسجاما مع هذه الوجهة النفسية فان قصيدة المقالح تضم الإشارة إلى أسطورتين هما سيزيف وعوليس ضمنا الشاعر معان ودلالات حافلة، اذ يقول في ملحوظة[٢]:

اتنتظر المساعدة الكريمة يا ابن ذي يزن؟
سنرفض أي حل سوف ياتينا مع السفن
سيرفض شامخا وطني
اذا سيزيف لم يحفل بصجرته
ويقذفها إلى اسفل
فمن ذا غيره يحفل
بحق الحب دعه يصارع المحتل
سيفشل مرة
لكنه في قادم المرات لن يفشل

فالشاعر هنا يجعل من الرمز الأسطوري اليوناني سيزيف* معادلا موضوعيا ينقل بعدا متكاملا من ابعاد تجربته الشعورية عبر توظيف للأسطورة مع أدوات أخرى وتكنيكات متعددة كالصورة السيزيفية أو تكنيكات من القصة والسينما كالمونتاج والارتداد الفلاش باك والمنولوج وغيرها ليكون معادلا موضوعيا للشعب اليمني بأسره اذ تعد هذه الأسطورة من أشهر أساطير العذاب تداولا في الشعر العربي الحديث وتمثل بعدا دلاليا مهما في التعبير عن المكابدة الابدية فهي رمز دال على عبثية الجهد المبذول وظفها الشاعر توظيفا فنيا للرد على سيف بن ذي يزن وغيره ممن يروك احتلال بلاده بذرائع مختلفة كسفن المساعدات أو السفن الحربية القادمة لطرد محتل اخر.

---

(١) الرمز الاسطوري في شعر بدر شاكر السياب: ٢٥.

(٢) ديوان عبد العزيز المقالح: ٢٨٨-٢٨٩.

(*) حاكم تحدى قدره ووقف على سرزيوس فكان نتيجة سخريته بالالهة ان عوقب بحمل صخرة ثقيلة من سفح جبل في الجحيم إلى اعلاه حتى اذا اوصلها إلى القمة تدحرجت إلى اسفل لتظل العقوبة سرمدية لعمل غير مثمر، ينظر: الرمز الاسطوري في شعر بدر شاكر السياب: ٨.

في إشارة إلى فعله سيف عندما استعان بالفرس، فالشاعر يعلن عن رفضه وتمرده على ذلك العار الذي لحق ببلده والذي لا يجب أن يتكرر في القابل من الايام الا أن المقالح في توظيفه للدور السيزيفي خرق الأسطورة موضوعيا فاذا كان سيزيف الأسطورة مستلما ومعتادا لعذره يحمل الصخرة التي تمثل بؤرة العقوبة وتعادل الاستعباد والاحتلال فان سيزيف المقالح يرفض هذا الدول بدلالة تكرار الرفض (سيرفض اذ توحد الشاعر مع بطله عبر تقنية القناع ومرة أخرى بقوله سيرفض شامخا وطني) ،اذ يمثل الرفض الثيمة المشتركة بين الاثنين، هذا من جانب ومن جانب اخر فان سيزيف المقالح همومي يقذف بالصخرة مختارا ذلك وليست هي التي تسقط بفعل العقوبة رغبة منه في التخلص من الاستعمار اذ يترتب على ذلك اختلاف النتيجة في الحالين فاذا كان سيزيف الأسطورة يفشل في حمل صخرته، فان سيزيف النص المقالحي سيفشل مرة لكنه في قابل المرات لن يفشل، وهذه دعوة للتفاؤل ،اذ إن هذه الاسطورة تحمل وجهين احدهما عينة الجهد المبذول والثانية وهي مقعد الشاعر بعدها رمزا للتصميم والمثابرة "فقد نسجها المقالح نسجا يتفق وحالة الشعب اليمني حيث تأبى عليه عاداته وتقاليده أن يحتمى بغيره فالمواطن هو الاولى بالدفاع عن وطنه. وسيزيف عند المقالح يعني ان الشعوب اولى بتحرير نفسها وحمل صخرتها الصماء"[١] ونلحظ على المستوى البنائي فان الشاعر قد اعتمد التغاير الاسلوبي في استخدام الضمائر والانتقال من صيغة خطاب (أنت) إلى تكلم (نحن) إلى غيبة (هو) وهذا ما يمنح للشاعر مرونة في التعامل مع الشخصية اذ توحد المقالح مع الرمز التاريخي من جهة بدلالة (سنرفض أي حل سوف يأتينا مع السفن) من جهة ثانية تداخل الرمزان الأسطوري (سيزيف) والتاريخي الشعبي (سيف) ولا يلبثان ان ينفصلا بدلالة "دعه يصارع المحتل فلولا هذا الخطاب لامتزج الرمزان دون انفصال ولحقق النص سابقة شعرية ايجابية اذ كان الفعل دعه بمثابة مؤشر على انفصال الرمزين من ناحية وعلى استعلاء ابن ذي يزن من ناحية اخرى اذ يصبح في موضع الامر الناهي مما قيد الرمز الاسطوري وحمل حريته مرتهنة وليست مطلقة"[٢]، ففي حالة الخطاب وانفصال الرمزين فان الشاعر يتخذ هذا الموقف عندما يحس بان الشخصية لا تحمل تجربته الذاتية وانما تجسد بعدا موضوعيا من ابعاد تجربة اكبر وهذا ما يحقق للنص لونا من الموضوعية[٣] وفي مقطع عتاب نرصد للشاعر توظيف رمزين اسطوريين هما عوليس وبنلوب).

---

(١) ظواهر اسلوبية في الشعر الحديث في اليمن: ١٥٣.

(٢) الحداثة في الشعر اليمني المعاصر ١٩٧٠-٢٠٠٠، عبد الحميد سيف احمد، اطروحة دكتوراه: ١٧٦.

(٣) ينظر: استدعاء الشخصيات التراثية: ٢٠٨.

اذ يقول[١]:

على كل الدروب بكل منتجع
طيوف داميات اليأس والوجع
تفتش عنك ياعوليسنا المفقود في فزع
وتسأل كل عابرة ضبابية
ولامعة سرابية
وما زالت مشردة
تضج بسجنها النائي
وتشكو سطوة الداء
وتصرخ في الظلام: متى؟
ايا عوليسنا.. بنلوب شاخ بكفها المغزل
وجف الثدى والمحبل
جموع الراغبين الخاطبين وصالها ترحل
وما باق هنا غير اللصوص السارقي الاعراض والمحتل
أترضى أن تسلم نفسها للعار
هل تقبل؟!
وهل عانقت ليل الغربة السوداء
ووجه الظلمة الخرساء
لغير خلاصها من قبضة الأعداء

فان كان توظيف الأسطورة السابقة دال على التفاؤل فان توظيف (اسطورة عوليس وبنلوب)* دال على عمق المعاناة النفسية ومشاعر الاضطراب والانتظار والخوف العزبة وما يعتلج من الخوالج النفسية لـ(بنلوب) التي تعد نموذجا مثاليا لما يجب ان تكون عليه المرأة من

---

(١) ديوان عبد العزيز المقالح: ٢٨٩.

* عوليس: هو اودسيوس اواولس من ابطال فتح طروادة اذ تصور الاوديسا صراع بطلها ضد اكلة لحوم البشر وما تواجهه من مخاطر بسبب اغضابه لـ(اله البحر) بعد ان فقائمين ابنه، اما بنلوب أو بنيلوب فهي زوجة عوليس الغائب وكانت على يقين من عودته فكانت تسوق الخطاب وتستمهلهم عن طريق شبح كف لزوجها طوال اليوم حتى اذا جاء الليل نقضه وهكذا إلى ان عاد زوجها وقضى عليهم جميعا، ينظر: الرمز الاسطوري: ٧٤-٧٥.

الاخلاص والوفاء والمحافظة على الشرف والكرامة اجراء غياب زوجها عنها عوليس عشرين عاما اذ بقيت في انتظاره حتى شاحت وهي ترفض جموع الخاطبين، فتركيز هذا النص ينصب على بنلوب بدلالة كثرة الضمائر العائدة لها، اما عوليس المفقود فلم يحضى الا باشرتين افترقنا بادائي النداء (يا، ايا) اشارة إلى بعده المكاني والزماني، فبنلوب هذا تعد رمزا معادلا موضوعيا لليمن ومن بعدها البلاد العربية التي تعاني الكثير من عوامل الضعف والتخلف والانكاسر والهيمنة الاستعمارية والبحث المتواصل عن المخلص والمنقذ المفقود المتمثل بعوليس / سيف المنتظر وما كلفها ذلك البحث من التشرد وتحولها إلى مجرد ضيوف دامية ملؤها اليأس والوجع سنين طويلة رغبة في تغيير واقعها المأساوي اذ تجسد ثمن السنين واقعيا بما اصابها من مظاهر الشيخوخة والهرم وتولي الشباب المعبر عنه بالتكنيكات الصورية من كالاستعارة بـ (شاخ بكفها المغزل) فاسند الشيخوخة للمغزل وهي من لوازم الانسان على سبيل الاستعارة المكثة وما فيها من مبالغة تصويرية فضلا عن الكناية في (حب الندي والمحبل) اذ فقدت القدرة على الانجاب والعطاء اشارة إلى اليأس من انجاب الابطال كعوليس الاسطورة ولا حتى كسيف بن ذي يزن (بطل الماضي) ولا تريد شيئا سوى خلاصها من قبضة الاعداء وهو امر صعب التحقق لان عوليس المخلص المنتظر مفقود لا تتأمل عودته وبذلك يكون النص المقالحي قد خرق الاسطورة فاذا كانت الاسطورة قد انتهت نهاية سعيدة بعودة بطل الاودية ليكمل حياته مع زوجه ويقضي على الخاطبين، فان اليمن ممثلة ببنلوب ما زالت ترج تحت طائلة الانتظار لمن يخلصها من واقعها المتردي طالما ان البطل المنتظر يعاني ليل غربة مريرة فهل سيتبع ذلك انبثاق فجر مشرق وهذا خرق جديد للاسطورة بان ترك المقالح النص مفتوحا لعدة تأويلات مما يضفي انفتاحا جديدا للرمز على بنية النص ما بين زمن الاسطورة الحقيقي والزمن المعاصر للواقع العربي المتردي الذي ما زال نهبا للاطماع الاجنبية.

الخاتمـــة :

- كشف البحث عن قدرة المقالح في توظيف المرجعيات على اختلاف أنواعها فنيا عبر إقامة جسور من الحوار الفكري مع النصوص الموظفة سواء أكانت دينية عبر الاقتباس والتوظيف الفني منها وتدبرا بما يجعل تلك النصوص حية ناضجة وتتسم بالحضور في كل زمان ومكان عبر قراءة جديدة في سياق شعري.
- أما على صعيد المرجعية الأسطورية فقد كانت أساطير يونانية وظفها الشاعر فنيا وغير دلالتها الأصلية بما يخدم واقعه العربي وتجربته المعاشة حسب مواقفه الوطنية فكانت رموزه الأسطورية وتوظيفها أكثر نضجا عن طريق قلب الأسطورة أو خرقها في جانب من جوانبها، فضلا عما أضفته على النص من وسائل تعبيرية درامية ذات نزعة ملحمية أغنت النص وارتقت به كثيرا.
- لم يكز المقالح على الدلالة الايجابية للنصوص الموظفة ، بل نجده يوظف الدلالة السلبية واحيانا يراوح بين الدلالتين ليترك للقارئ مسؤولية التأويل حسب الموقف الشعري.
- حاول المقالح من خلال حشد رموز البطولة ذات المرجعيات المختلفة استثارة الشعوب العربية ، فضلا عن إشارته الى رمز الظلم وما حل بهم ليؤكد أن الكل الى زوال ولا دوام للظلم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: الكتب

- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م.
- الأسطورة في الشعر العربي الحديث، د. أنس داود، دار المعارف، ط٣، ١٩٩٢.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م.
- تفسير الطبري.
- ديوان أبو تمام.
- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، دار القاهرة، ١٩٩٧م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، (د.ت).
- الكتاب المقدس، كتاب الحياة، عربي إنجليزي International Bible Society, ISBN، ١٩٩٩م.
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ)، دار الرسالة، الكويت، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، د. عبد المنعم الحنفي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠م.

ثانياً: البحوث المنشورة في الدوريات:

- اشتغال التراث في الشعر العربي المعاصر تجربة محمود درويش نموذجا، عبد الرحمن التمارة، البحرين الثقافية، العدد ٤٢، لسنة ٢٠٠٥م.
- توظيف الموروث الديني في شعر حيدر محمود، إبراهيم الكوفحي، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٢٨، العدد ١، لسنة ٢٠٠١م.
- دلالات التناص في قصيدة راية القلب لإبراهيم نصر الله، أحمد الزغبي، دراسات العلوم الإنسانية، المجلد ٢٢، العدد ٥، لسنة ١٩٩٥م.
- الحداثة في الشعر اليمني المعاصر ١٩٧٠ – ٢٠٠٠، عبد الحميد سيف أحمد الحسامي، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الموصل، بإشراف: أ. د. إبراهيم جنداري، ١٤٢٣ – ٢٠٠٢م.

The Employment of Religious and Mythical Heritage in on Abdul Aziz Al Makalihs "Risala Ila sauf bin Thi-Yazin"

Dr. Ghanim Saleh Sultan
University of Mosul
College of Education for Humanities
Arabic Depart ment.

Abstract

This Study aims at Shedding light on the importance of employing the tradition in the temporary poetic Arabic text for the tradition is a rich soruse for poets to enrich there texts .the study concentrate on Abdul Aziz Al Makalihs "Risala Ila sauf bin Thi-Yazin" This poem is full for religious and muthical traditions. Troughthem, the poet tries to urge people to ehange the circumstances of their society. This is carried out by alluding to some heroic figures which represent resistance. Gowever ;the levels for the employment staggers between positivity and negativism.